إشكالية التواصل اللغوي ما بين التعليمية وتعليم اللغات

د/حنان يوسف نور الدين عبد الحافظ

كلية النصر للبنات (مصر)

ملخص بحث بالعربية:

يتناول البحث موضوعًا من أخطر الموضوعات المطروحة على الساحة العلمية واللغوية الآن؛ وهو التواصل اللغوي؛ إنه سيرورة اجتماعية مفتوحة على الاتجاهات كافة، وبه يتحقق التعاون سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، بل أيضًا على مستوى الدول .

ويهدف البحث إلى الخروج باللغة العربية مما تعانيه اليوم من محنة واختبار إلى حيز الاستعمال والممارسة الميدانية؛ لذا سلط البحث الضوء على ميدان التعليم؛ فهو أنسب ميدان للاحتفاء باللغة العربية ذلك أن مستقبلها مرتبط دون شك بانتشار التعليم على مستوى الأمة كلها، فلا يمكن تصور وعي لغوي جديد إلا في إطار تعليم جاد .

وتعود أهمية البحث إلى حقيقتين مهمتين؛ أولاهما: أهمية العلوم الحديثة في جعل عملية تعليم اللغات ذات مستوى عال من الفاعلية؛ فدراسة اللغويات هي أحد فروع علم الإنسان الثقافي باعتبار اللغة أحد أهم عناصر الثقافة إن لم تكن أهمها على الإطلاق. ثانيهما: التأكيد على أن تعليم اللغة يتم لأداء وظائفها الاتصالية بقصد تحقيق التبليغ والتواصل لدى الفئات المتعلمة.وقد تناول البحث النقاط التالية:

مشكلات التعليم : حيث وقفنا بداية على الفرق بين ثلاثة مفاهيم رئيسية: التعليم والتعلم والتدريس، وكيف أن اختيار المحتوى أهم عنصر يقوم عليه تعليم اللغة، ويليه تنظيم المحتوى مع مراعاة مبدأ التدرج، ثم قمنا بعرض لطبيعة الصعوبات التي تواجهها لغتنا العربية وعرض صور منها.

نظريات التعلم : فحتى نصل إلى تعليم جيد لابد من الاستفادة من التقدم المتسارع للعلوم والتقنيات الحديثة، وهذا ما تناولته هذه النقطة من حديث عن نظريات التعلم وتعددها كمظهر من مظاهر التقدم العلمي الواجب الأخذ به واعتماده عند التصدي لمشكلات التعليم .

التعليمية وتعليم اللغات : ونؤكد من خلالها أن التعليميات ارتبط وجودها بنظريات التعلم؛ وهي تتعلق بكل مواد التعليم وطرق التعلم. أما تعليمية اللغات فهي مجال تطبيقي مهتم بالتحولات والتطورات التي اقتضتها الحياة الإنسانية على الأصعدة العلمية والمعرفية والتقنية بوجوهها المتنوعة .

اللغة والتواصل : نبين فيها البعد البراجماتي للغة أي اللغة وهي منغمسة في تيار الإنتاج والإبداع لنصل إلى التفاهم الذي هو غاية التواصل ومقصده .

والبحث يرجو نتائج منها ضرورة الاعتناء بلغتنا والانفتاح على المستجدات الحضارية دون تمييع لشخصيتها أو تضييع لسماتها المميزة، والوصول باللغة العربية إلى العالمية مع الافتخار بعراقة الماضي.

كلمات مفتاحية : **التعليمية – تعليم اللغات – نظريات التعلم – التواصل اللغوي.**

Summary of research titled

The problem of lingual communication between

La didactique and Languages teaching

By Dr. / **hanan Youssef noureldin abdelhafez**

This paper tackles a very crucial topic that is been one of the topics in the scientific and educational field. It is lingual communication; which is a social continuity which is quite open to all fields, through which co-operation takes place on the lure of individuals, groups even countries.

The research aims at relief the Arabic Language of the ordeal that it suffer from the testing usage and practice. Hence the paper highlighted the educational field as it's the best spot to celebrate the Arabic Language. As education the Arabic education are tightly related since there is no new lingual awareness without a serious educational frame wrote. The importance of this paper is related to two important facts;

First: the important of new disciplines in the efficiency of the process of learning languages. Studying linguistics is considered to be one of the most important aspects of culture.

Second: highlighting the fact that learning a language is for performing its communicative functions in order to achieve connectivity among learners. This paper has tacked the following points:

Teaching problems: it differentiated between 3 main concepts; Teaching, Learning and Instruction. It was highlight had that the choice of content is one

of the most important factors that language learning depends on. Then comes the organization of the content, taking into consideration the sequence some of the difficulties facing our Arabic Language ware discussed as awell .

Learning Theories : In order to have a good teaching, we have to make use of the fast growing development of sciences and technologies. This is what delt within this point was.

La didactique and Languages teaching: we emphasized that teaching existance has been related to learning theories which is connected to all teaching disciplines and learning methods. As for teaching languages; it is a practical field which is concerned with changes and developments of the human life on the different scientific, cultural and teaching aspects.

Language and Connectivity: we highlight the pragmatic aspect of the language; the productivity and creativity of language that lead to the ultimate goal which is understanding.

The research aims at some results which include; the necessity of caring for our language; being up-to-date and learning about the newest cultural aspects without losing its identity or its characteristics in order to reach the world keeping the past root.

Keyword: La didactique – Languages teaching – Learning theories – Lingual **connectivity**.

مشكلات التعليم: إن أية لغة خلال مسيرتها في الحياة لا تسلم من أن تتجاذبها قوتان متناقضتان؛ الأولى: تأتيها من صفتها القومية لكونها مميّزًا قوميًّا لمجتمعها، وشاهدًا على تاريخه، مما يجعلها رافضة التحوير والتغيير، متمسكة بماضيها، والقوة الثانية: تأتيها من قانون الحضارة المؤمن بالتقدم والتجديد، ولا يؤمن بالجمود والوقوف، وهي خلال هذا الصراع بين حالين إما ركود وانزواء أو انطلاق وريادة، وبالتأكيد نرجو للغتنا العربية الحال الثانية، وهذا لا يتأتى إلا بمسايرة الحاضر والاطلاع على كل ما هو جديد، والاضطلاع به، مع الحفاظ على سمتنا الخاص بنا، والاحتفاظ بهويتنا العربية؛ ذلك أن "مستقبل اللغة العربية مرتبط دون شك بانتشار التعليم على مستوى الأمة كلها، ولا يمكن تصور خطة لغوية شاملة أو وعي لغوي جديد إلا في إطار تعليم جاد"[1].

وحري بنا قبل البدء في عرض مشكلات التعليم وسبل علاجها، أن نقف على توضيح الفرق بين ثلاثة مفاهيم رئيسية في العملية التعليمية إذ يوجد خلط كبير في فهم معانيها وتحديد ماهيتها؛

وهي التعلُّم، والتعليم والتدريس. "فالتعلم Learning هو نشاط يقوم به الفرد لاكتساب سلوك أوفكرة أوانفعال أوحركة ما فهو بذلك نشاط من جانب المتعلم. أما التعليم Teaching فهو المهمة الملقاة على عاتق فرد أوموقف أوجماعة لمساعدة المتعلم على تحقيق هدفه. ويعتبر التدريس Instructionحالة خاصة من حالات التعليم فهو نشاط تعليمي مقصود لذاته تقوم به أجهزة ومؤسسات تهدف من ورائه إكساب المتعلم معلومات ومهارات معينة"[2].

والتدريس هو عملية منظمة تشمل ثلاثة جوانب أساسية هي: التخطيط والتنفيذ والتقويم، ولكل جانب من هذه الجوانب مهاراته الخاصة به، والتي بدونها لا يستطيع المعلم أداء رسالته على أكمل وجه. ولعل أخطر هذه الجوانب التخطيط Planning وهو يقتضي بطبيعة الحال الاختيار؛ إذ إنه من المستحيل تعليم كل اللغة لذا لابد من الاختيار القائم على أسس علمية محكومة بضوابط ومعايير، ولكي يحقق التخطيط هدفه لابد أن يكون ".. واضح الهدف، لابد أن تكون البرامج عملية تنطلق من الواقع اللغوي والاجتماعي في أبعاده المختلفة مع الإفادة من الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق الهدف المنشود. والمؤسسات المعنية بالتخطيط اللغوي متنوعة تشتمل على المؤسسات الإعلامية والمؤسسات البحثية مثل المجامع اللغوية"[3]، كما يتعلق أيضًا التخطيط بموضوعات شتى " منها تحديد اللغة أو اللغات المقبولة قانونيًّا من قبل دولة ما، كلغة أو لغات للسياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك"[4].

وعليه فإن اختيار المحتوى وتنظيمه أهم عنصر يقوم عليه تعليم اللغة، وهو أحد مهارات ثلاث لعملية التخطيط، علمًا بأن المهارتين الأخريين لا تقلان أهمية عنه؛ وهما: تحليل خصائص المتعلمين، وصياغة الأهداف التعليمية. ويعد اختيار النصوص هو عصب اختيار المحتوى، فلابد عند تعليم اللغة الأم أن يكون الاختيار من النصوص الأصلية، وإن كان بها شيء من الصعوبة فلا مانع من تبسيطها؛ ذلك من أجل ارتباط المتعلم بتراثه وتاريخه وثقافته، فيتحقق التواصل بين القديم والحديث، على أن تتميز هذه النصوص بالشمول لثقافة الأمة وتراثها وكافة مجالات الحياة فيها، مع عدم إغفال الحياة المعاصرة التي يحياها المتعلم؛ إذ إنها أمر واقع لا يمكن تجاهله، ومن هذا المنطلق نقول إن أساس اختيار المحتوى هو ".... المزج بين الفصيحة المعاصرة وفصيحة التراث. أما الفصيحة المعاصرة فيهمنا منها أولاً ذلك النمط العام الذي تمثله لغة وسائل الإعلام، واللغة المستعملة في الخطب العامة، وفي المحاضرات، ثم النمط الفني الذي يمثله الإنتاج الأدبي على مختلف أنواعه. أما فصيحة التراث فهي من أهم ما ينبغي العناية به؛ لأنها هي التي تحمل ثقافة الأمة الإسلامية، وهي ثقافة متصلة لا تعرف الانقطاع. ويكون الاختيار منها موافقًا لمعايير الاختيار

السابق ذكرها؛ فنبدأ بما هو مألوف للتلاميذ مما هو قريب من الفصيحة المعاصرة، وهو كثير جدًا لا يعجز من يتوفر عليه للاختيار منه. ثم نتدرج بعد ذلك خطوة خطوة حتى يصل الطالب إلى نهاية المرحلة الثانوية وقد تمكن من فصحى التراث تمكنه من الفصيحة المعاصرة. ومن المهم جدًا ألا نؤخر تقديم نماذج من هذه الفصحى إلى المرحلة المتوسطة أو الثانوية؛ بل إنه من الواجب أن يقف تلاميذ المرحلة الابتدائية على النماذج الأدبية الكبرى في تراثهم وإن اقتضى الأمر تبسيط النص في هذه المرحلة. وهذا ما هو مطبق في البلاد المتقدمة حيث يدرس شكسبير في المرحلة الابتدائية في بريطانيا، ويدرس جوته في المرحلة نفسها في ألمانيا، في نصوص يتوفر عليها مختصون لتبسيطها لهذه المرحلة، والتبسيط Simplification أسلوب علمي له طرائقه الخاصة"[5].

ويتضح من هذا الكلام أن التدرج مبدأ مهم ورئيس لا غنى عنه في العملية التعليمية، وهو يرتبط بعملية تنظيم المحتوى، تلك العملية التي تلي عملية اختيار المحتوى. هذا عما يجب أن يقوم به الباحثون في شأن اللغة وتعليمها ذلك أن دور اللغة لا يقتصر " على تيسير التحصيل والاستيعاب للمواد الدراسية. إنها بالإضافة إلى ذلك- تمد المتعلم بعامل مهم من عوامل النجاح في الحياة العامة، إذ تمنحه القدرة على أن يتعامل بالكلمة تعاملاً لبقًا ذكيًا، فيتحدث ويناقش بوضوح وتركيز، ويقرأ ما تقع يده عليه ويفهمه في جلاء وعمق. وهذا الضرب من استغلال اللغة وفنونها من شأنه أن يفتح للإنسان في الحياة مجالاً أوسع ويسير به في دنيا الثقافة إلى مدى أرحب"[6].

ولابد أن نضع في الاعتبار أن " اللغة لغتان، لغة تفاهم ولغة فهم. والغرضان مختلفان. فلغة التفاهم، وسيلة نعبر بها عن مشاعرنا وآرائنا تعبيرًا يراد به نقل هذه الأمور إلى غيرنا نقلاً حسنًا، وللألفاظ فيها قوة ذاتية تأتيها من موسيقاها وتاريخها وملابساتها ..... أما لغة الفهم، فلا تختلف باختلاف عقلية أهلها وإنما تختلف باختلاف موضوعاتها. والفرق بينها وبين لغة التفاهم هو الفرق بين قوانين الجاذبية وهي لا تتعلق بطبائع الناس وقوانين الجمال وهي خاضعة لما فيهم من خصائص. ولغة الفهم يجب أن تطابق العلوم التي تتناولها حتى تستطيع أن تسير معها جنبًا إلى جنب حيث في تقلباتها ونموها.."[7].

ومع بالغ الأسى والأسف أضحت شكوى عدم فهم اللغة العربية بين أهليها، وكأنها هي القاعدة والأساس وهكذا أصيبت ألسنتنا – لاسيما الناشئة – بشيء من الاعوجاج والانحراف جعلها لا تستطيع أداء العربية أداءً صحيحًا، ولا تنطقها نطقًا سليمًا فـ "..... اللغة العربية اليوم

في محنة واختبار وعليها تدور الأحاديث وفيها تتنازع الآراء وحولها يتخالف أهلوها: فريق منهم يظنون بها الظنون وفريق آخر يجادلون عنها خشية أن يهون سلطانها في مجال الإبانة والتعبير"[8].

وهذه المحنة نابعة مما شاع بين الخاصة والعامة من صعوبة النطق بالعربية وقراءتها خالية من الضبط، مما جعل البعض يتخيل أن هذه الصعوبة ستصبح حائلاً قويًّا دون تعلُّم العربية، ومن أجل ذلك ألحت الضرورة بتيسير النحو العربي، وتسهيله على الدارسين، ولم تكن هذه الدعاوى مجرد صدى الانتقادات التي كانت ومازالت توجه للنحو العربي قديمه وحديثه، وإنما أصبحت دعاوى لها دوافعها وأسبابها المنطقية التي دعت إليها الحاجة بطبيعة الحال، فلم يكن بدٌّ من أن يجرد الكتّاب أقلامهم، ويسير الدعاة في طريقهم؛ من أجل البحث في شأن هذه اللغة؛ لغة العروبة والإسلام، وعنوان ثقافة الأمة وحضارتها؛ فهي عنصر من عناصر قوميتنا، ومن حقها علينا أن نخلص لها، ونبذل قصارى الجهد لرفع شأنها وتحقيق سيادتها، وأنسب ميدان للاحتفاء بها: ميدان التعليم، فعلينا أن نتعرف على ما يلاقي تعليمها من صعاب فنذللها.

والواقع أن لغتنا تواجه بعض الصعوبات التي لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها؛ وهي نوعان: منها ما هو جوهري أصيل، ومنها ما هو طارىء دخيل " فمن الصعوبات الجوهرية الأصيلة التي نلحظ آثارها في تعليم الأطفال تعدد صور الحروف العربية باختلاف مواقعها من الكلمة، ومنها أيضًا إضافة الحركات والسكون إلى صورة الحرف لضبط النطق وصحة الأداء ولا يخفى ما في ذلك من مضاعفة الصعوبات على الأطفال. أما الصعوبات الطارئة الدخيلة فتتمثل في مزاحمة اللغة العامية وقوة نفوذها وبسط سلطانها في البيت والشارع والملعب والسوق، بل في المدرسة أيضًا. ومن هذه الصعوبات التي شقيت بها اللغة العربية وأثّرت في تعليمها، الوضع الاجتماعي لها في فترة من الزمن ثقيلة؛ وذلك أن اللغة العربية قد تعرضت لألوان المحن، وضروب الكيد، أيام الاحتلال وفي عهود السيطرة الأجنبية على البلاد العربية وعملت السياسة الاستعمارية – في جد ودأب – على زحزحة اللغة القومية عن مكانتها الطبيعية، وعلى تخلّف القوّامين عليها عن نظرائهم ممن يحملون أعباء التربية والتعليم، كما عملت هذه السياسة على تقديم الثقافة الأجنبية وإيثار أربابها وخلق جو اجتماعي عاشت فيه أجهزة التعليم مدة من الزمن، فقدت فيه معالم الكرامة القومية والعزة العربية"[9]، ومن غرابة الظروف التي أحاطت بالعربية وجعلت تعليمها يعاني تلك الصعوبات ما "... يكمن في السياسة التعليمية التي تطبق في مختلف أقطار الوطن العربي"[10].

فلاشك أن لغتنا العربية مستهدفة من أعدائها الحاقدين؛ فانتشار أية لغة مرهون بتقدمها العلمي، وهذا التقدم المتسارع للعلوم والتقنيات الحديثة ليفرض على اللغة العربية أخذ مقعدها واستعادة دورها الريادي، فنحن نعلم أن كلاً من اللغة والعلم من ناتج العقل البشري، وكلاهما يحمل طابع نظامه الخاص؛ فإن العلم لغة محكمة البناء.

نظريات التعلُّم: علينا بداية أن نقر بأن قضايا اللغة العربية أصبحت الآن "...تخص سياسة التعليم واستيعاب تقنياته وأساليبه ونظرياته الحديثة. فقد حان الوقت كي تلتزم الأمة العربية في جميع أقطارها بسياسة سيادة العربية في أوطانها بأن تصبح لغة التعليم في جميع مراحله وبخاصة في الجامعات والمؤسسات العلمية العالية، وأن تكون لغة البحث العلمي في جميع مجالات العلوم أو لغة التقنيات الحديثة"[11] حيث إن اللغة تحيا وتنمو بالاستعمال .

وحتى نصل إلى تعليم جيد لابد من الإجابة على سؤال مهم هو كيف نعلِّم اللغة؟ وتقتضي الإجابة تناول هذه الركائز—كما وضحها د.عبده الراجحي[12]وهي:

أ- نظريات التعلم Learning Theories، والمتأمل في هذا العنوان للوهلة الأولى يعتقد أنه يرتبط بعلم التربية Educational Science فقط، ولكن علم التربية ليس هو العلم الوحيد المهتم بنظريات التعلم، بل يشركه في ذلك علم اللغة النفسي Psycholinguisticsحيث إن هذا العلم مجاله السلوك اللغويLinguisticbehavior؛ وهو يدور حول محورين أساسيين: الاكتساب اللغوي Acquisition، والأداء اللغوي Performance " وميدان التعلم هو أخصب الميادين التجريبية في علم النفس على الإطلاق، لأنه هو الذي ييسر لنا أن نفهم ما نحن عليه الآن، وما مدى تأثير العوامل الخارجية على الإنسان وغيره من الكائنات الحية الأخرى"[13] .

ويرتبط علم اللغة النفسي بمنهجين متمايزين عنه؛ الأول: المنهج السلوكي باتجاهه الاستقرائي، الذي يهدف إلى تثبيت العادات اللغوية مستعينًا بالعوامل الخارجية المؤثرة مثل: المحاكاة، والتكرار، والتعزيز، والثاني: المنهج العقلي باتجاهه الاستدلالي، الذي يهدف إلى تقوية القدرة اللغوية لدى الإنسان بإشراكه فعليًّا في إنتاج اللغة لا محاكاتها[14] وسيأتي الحديث عن نظريات التعلم لاحقًا.

ب- خصائص المتعلم Learner Characteristics؛ ولابد من وضعها في الاعتبار؛ حيث إنها تختلف باختلاف المتعلمين أنفسهم، بل وتختلف حسب درجة أهميتها للمتعلم للغة الأولى والمتعلم للغة الثانية، ومن تلك الخصائص: العمر، والقدرات المعرفية للمتعلم، واستعداده للتعلم، ومعلوماته اللغوية السابقة، ومدى معرفته بلغات أخرى، وشخصيته وغير ذلك[15]

ج- الإجراءات التعليمية Didactic Procedures، وهي من أهم الجوانب التي لا غنى عنها لعملية تعليم اللغة، فأي مقرر تعليمي لابد له من إجراءات تعليمية تسبقه من أجل تحقيق تطبيقه وتنفيذه داخل موقع العمل والدراسة، أي داخل قاعة الدرس، وهناك بعض العوامل المؤثرة في عملية تعليم اللغة والمختلفة تبعًا لاختلاف الموقف التعليمي؛ ومنها: خصائص المتعلمين، وأهداف المقرر،....إلخ، ومن هنا ظهر ما يسمى بالمدخل الإجرائي Procedural Approach.[16]

د- الوسائل التعليمية Aids، ولا يمكن إغفالها؛ حيث أصبحت من الوسائل المعينة على إتمام العملية التعليمية بأفضل صورها المرجوة، فضلاً عما توفره من جهد ووقت، وما تقدمه من متعة وإثارة للمتعلمين، وإثراء في عملية تعليم اللغة خصوصًا.

وتنقسم هذه الوسائل إلى نوعين: الأول؛ الوسائل المباشرة؛ ومنها: جهاز عرض الصور الرأسي The overhead Projector، وجهاز عرض الشفافيات Overhead Transparencies، والأفلام المتحركة Filmstrips، والسينما Movies، وشرائط الفيديو Video Tape والتلفاز T.V. والثاني: الوسائل غير المباشرة؛ ومنها: فونوغراف الحاكيPhonograph، وجهاز التسجيل The tape recorder، والمواد المتعددة النسخ بأنواعها Multi-Copied Material، وهناك وسائل أخرى تعد وسائل غير فنية إلا أنها متوفرة؛ ومنها: الوسائل المعتمدة على السبورة بكافة أنواعها Board-based Aids،والصور Pictures، والأدراج الأسطوانية والمطبوعات Charts and Scrolls، وجيوب الكلمات والصورWord and picture pockets ، والأشياء الحقيقية.[17]

ومن أكثر هذه الوسائل فعالية في التدريس الأفلام السينمائية؛ فتصدر صحيفة TESOL مقالاً عن ذلك تقول فيه:إن الأفلام المصورة من أكثر الوسائل فعالية لتدريس اللغة للناشئين والكبار؛ حيث إن معظم الطلاب يجدون متعة في مشاهدة هذه الأفلام واهتمامًا بفهم الحوار والبعد الثقافي، فالتفاعل بين اللغة والصورة المرئية عن طريق هذه الأفلام يساعد على اكتساب اللغة، ويتيح فرصًا لا نهاية لها للتعليم الصوتي كأنشطة تمارس داخل الفصل الدراسي. ومن أحدث هذه الصيحات الحديثة لتقنيات التعليم اللغوي؛ الكمبيوتر والفيديو كليب، وما يقدمانه من سرعة ودقة وتشويق للمتعلم.

ونظرًا لما أحدثته الثورة المعلوماتية من تقدم هائل وسريع، يحتل فيها الواقع الالكتروني والتكنولوجي مرتبة الريادة بلا منازع ولا شريك، فقد ظهرت وسائل وأدوات أخرى للتواصل

الاجتماعي التعليمي؛ ومنها: Twiducate, Tween Tribune, Wikispaces Classroom, Edmodo, EDU2.0, Skype, MinecraftEdu, Sumdog, Twitter.

إذن فالعلم هو وسيلة التقدم ولا سبيل أمامنا غيره لنتبوأ مكانتنا في هذا العالم العصري القوي. وقد حان الحديث عن نظريات التعلم وتعددها كمظهر من مظاهر التقدم العلمي الواجب الأخذ به واعتماده عند التصدي لمشكلات التعليم.

وكما هو الحال في العلوم فلقد مرت نظريات التعلم بمراحل عدة، نعدها مراحل تكاملية حيث كان لكل نظرية قوانينها التي تقوم عليها، ومبادؤها التي تقرها، ثم تأتي النظرية التي تليها كردة فعل لما أُنتقِد في منهج السابقة " لا مفر من التعرض لنظرية ادوارد.ل.ثورنديك في أي حديث عن نظريات التعلم؛ ويعتبره بعض المؤرخين أعظم المنظرين في مجال التعلم على الإطلاق لا من حيث أعماله الرائدة في مجال التجريب والتنظير بل أيضًا في مجال التطبيقات التربوية والذكاء وانتقال أثر التدريب وغيرها"[18]

حيث أجرى ثورنديك تجاربه على الحيوانات، وقد كان هذا سبب من أسباب انتقاد نظريته؛ وهو تعميمه قواعد تعلم الحيوان على الإنسان، إلا أنه يُذكر لثورنديك أنه " أول نظرية حديثة في التعلم ولقد تأثر ثورنديك بأفكار دارون ولذلك ألح على الطابع الوظيفي للسلوك أي اعتبار السلوك يخدم وظيفة ما"[19] ولقد اتسمت أفكاره بأنها ارتباطية.

من أجل ذلك ظهرت نظرية الجشطلت محتجة على هذه الأفكار الارتباطية، ويعد أبرز المنظرين لها كوهلر " وتعتبر الجشطليتة معاصرة للسلوكية فبعد أن قام واطسون (1878-1958) بثورته السلوكية في أمريكا أصبحت هي موضة العصر وسرعان ما جذبت إليها العلماء الذين انضموا تحت لوائها من أمثال جاثري وسكنر وهل وانصب الهجوم الرئيس لأصحاب السلوكية على المفهوم البنائي ومنهجه الاستبطاني ويعتبر الكثيرون أن بداية السلوكية أعلنت على يد واطسون"[20].

ومع تطور العلوم وتفرعاتها ظهرت مناهج عدة لطرائق التعليم، كل منها يعتمد على اتجاه ما؛ فهناك " التصنيف السيكولوجي الفلسفي على نحو ما قاله ديكرولي Decroly الذي اعتمد أساسًا على نظرية الجشطالت في تأسيس طرائقه التعليمية، أو مونتيسوري Montessori الذي اعتمد على السيكولوجيا الحسية لكوندياك Condillac أو سكينر Skinner التعليم

الإجرائي الذي لا يخرج عن حقل المثير والاستجابة، أو Piajet الذي اعتمد في بث طرائقه التعليمية وأساليبه البيداغوجية، على الأسس الإبستيمولوجية التكوينية"[21]

ومهما تعددت هذه النظريات فلن تؤتي ثمارهاإلا بالتطبيق العملي " فالعلاقة بين نظريات التعلم والممارسات التربوية هي العلاقة التي لابد أن تقوم بين أي علم خالص وتطبيقاته الفنية (التكنولوجية) ....إذإن الانتقال من نظريات التعلم إلى ممارسة التعليم تحدده الأهداف التعليمية المطلوبة لمجتمع ما في زمان ما وكذلك بمطالب الجماهير واحتياجات المجتمع ومصادره بالإضافة إلى ما يقوله علم النفس في هذا الشأن"[22]

التعليمية وتعليم اللغات: إن مصطلح تعليمية على إفراده هكذا يستخدم كمصدر صناعي بزيادة ياء النسبة المشددة على المصدر العادي مع إردافها بتاء للدلالة على الصفة، وهو أيضًا مصوغ في التركيب الإضافي باسم تعليمية اللغات، وهناك من يستعمله كمركب ثلاثي- ذلك أن الأمر متعلق باللغات – فيسميه علم تعليم اللغات. وأيًّا كانت التسمية أو التحليل للمصطلح؛ فالثابت أن التعليمات ارتبط وجودها بنظريات التعلم، وهي تتمحور حول المثلث التعليمي؛ المعلم، والمتعلم، وطريقة التعلُّم؛ كما أنها تتعلق بكل مواد التعليم. أما تعليمية اللغات فهي مجال تطبيقي ينظر للعملية التعليمية في ضوء كل الاختصاصات القريبة من مجالات التعليم؛ مهتمًّا بالتحولات والتطورات التي اقتضتها الحياة الإنسانية على الأصعدة العلمية والمعرفية والتقنية بوجوهها المتنوعة.

ولقد كان التعليم والتعلُّم على مر العصور جانبًا مهمًّا ورئيسًا من النشاط المعرفي الإنساني العربي؛ فها هو ابن خلدون يؤسس " للتعليم والتعلُّم من خلال ثلاثية المعلم والمتعلم والمحتوى الدراسي في ظل طبيعة الفكر الإنساني التواقة إلى التحصيل المعرفي، والراغبة فيه من جهة، والتغيرات العمرانية والحضارية من جهة أخرى، كشروط أساسية لحصول ظاهرة التعلم والتعليم الطبيعية في العمران البشري"[23]

ولقد وضع شروطًا ستة لتسيير وتيسير العملية التعليمية؛ حيث إنه أدرك ما تعانيه اللغة العربية من مشكلة، وفي الحقيقة مازالت المشكلة قائمة من معاناة واقعنا التعليمي من ضعف وانخفاض في المستوى، يرجع – حسب رأي ابن خلدون واللغويين المحدثين أيضًا – إلى عدم حصول أبناء اللغة على الملكة التامة للسان العربي.

من أجل ذلك اهتم الباحثون في مجال تعليم اللغات باللغة المنطوقة ورأوا أنه ينبغي " أن يكون تعليم الكلام المنطوق أساس العملية التعليمية كلها أما القواعد النحوية فيمكن للدارس أن يتعلمها أيضًا في إطار الجمل المنطوقة وأن يكتشفها عن طريق الممارسة العملية للغة" [24]

لذلك كان جلُّ اهتمامهم "بإيضاح الطبيعة الصوتية للغة، وفي بيان أهمية تعرف بنية اللغة وفي الاهتمام بالوظيفة الاتصالية للغة، وكل هذا من أجل الوصول بالدارس إلى المهارات اللغوية المستهدفة، وتجاوزًا بهذا طريقة التلقين المباشر للقواعد اللغوية"[25]

ولقد أسهمت العلوم اللغوية الحديثة في الخروج بالتعليم من حيز التلقين إلى حيز التحصيل والممارسة الميدانية، وجعل عملية تعليم اللغات ذات مستوى عال من الفاعلية " تسمح للمتعلم بالتعرف على قيم الأقوال، ودلالات العبارات في مجال استخدامها، وأغراض المتكلم ومقاصده التي لا تتضح إلا بربطها بسياقات استعمالها. وبهذا عد البعد التداولي أحد منابع العملية التعليمية، إذ بفضله تجاوز التعليم –كما سبق الذكر– مهمة التلقين إلى مهمة التحصيل وذلك بالاقتصار على تعليم المتعلم ما يحتاج إليه، مبتعدًا قدر الإمكان عن الأساليب والشواهد التي تثقل ذهنه وهذا ما يؤكده الجيلالي دلاش بقوله: هناك شعار واحد يشغل أهل هذا الاختصاص الملكة والتبليغ"[26] .

ونخرج من هذا بحقيقتين؛ أولهما أن " أهم إسهام لعلم اللغة التداولي في نظرية تعليم اللغات أن تدريبات الأنماط اللغوية ينبغي أن تصمم – أيضًا – في إطار منظومة مواقف، وبذلك يتم تعليم اللغة لأداء وظائفها الاتصالية. وهنا نجد في التعليم الاتصالي للغة اتجاهًا حديثًا"[27]

والحقيقة الثانية؛ هي أن نظرية تعليمية اللغة تُدرَس بقصد تحقيق التبليغ والتواصل لدى الفئات المتعلمة، وذلك من أجل تفادي تكرار الأخطاء، ولاكتساب المتعلمين عادات صحيحة أثناء عملية التعليم المباشرة وبذلك نصل إلى الرفع من مستوى التدريس عن طريق الممارسة، وامتلاك وسائل التكنولوجيا، والتحكم في إدارة أجهزتها التواصلية الحديثة.

اللغة والتواصل: نخلص مما سبق إلى أن الهدف الأول والأخير من تعليم اللغة هو التواصل؛ إنه " سيرورة اجتماعية مفتوحة على الاتجاهات كافة؛ إذ لا تتوقف عند حد بعينه، بل تتضمن عددًا هائلاً من سلوكيات الإنسان السيميائية تتمثل في: اللغة والإيماءات، والنظرة، والمحاكاة الجسدية، والفضاء الفاصل بين المتحدثين، وعليه لا يمكن الفصل بين التواصل اللفظي، والتواصل غير اللفظي السيميائي؛ لأن الفعل التواصلي هو فعل كلي"[28].

ففي ظل البعد التداولي للغة ينظر إليها " باعتبارها وسيلة التواصل بين متكلم وسامع، أي الانتقال من منطق الماهية إلى منطق العلاقة، من منطق النسق إلى منطق التحاور والتفاعل، أي تناول البعد التفاعلي للغة الذي يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها، وإجراءات التواصل بشكل عام. لقد آن لنا أن ننتقل من اعتبار اللغة نصًّا مغلقًا إلى النظر للغة باعتبارها سياقًا خاصًا وظروفًا معنية ليس بالمتكلم وحده، بل بالسامع أيضًا؛ هذا الرقم الذي همش من ميدان البحث اللغوي طويلاً "[29]

وبناء على ما تقدم فـ " إن التواصل كما يصوره هابرماس ينظر إلى اللغة في بعدها البراجماتي، أي اللغة وهي منغمسة في تيار الإنتاج والإبداع، لكن ما هذا الإنتاج إنه وبصرامة واختصار التفاهم أو الوفاق entente "[30] . إذن فالتفاهم هو غاية التواصل ومقصده، وبه يتحقق التعاون سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، بل أيضًا على مستوى الدول.

وهناك عدة أنماط وأشكال للتواصل منها: التواصل القريب، والتواصل المسافي، والتواصل الثنائي الاتجاه La Communication Bidirectionnelle، والتواصل الأحادي الاتجاه La Communication unidirectionnelle.

ومما لاشك فيه أن ثقافات التواصل قد تطورت متنقلة بين المرئية، والصوتية، واللمسية، والشمّية، والمعادلة، وهذا الاختلاف هو أحد الخصائص المميزة للتقنية والتطور العلمي.[31]

إذن فقد بات ضروريًّا الأخذ بكل ما هو جديد، فقد أصبحنا بحاجة لإعادة صياغة الماضي بتصورات الحاضر ومستجداته، دون أن نُفقد هذا الماضي مكوناته الأساسية، التي هي سر عظمته والدافع وراء الحفاظ عليه؛ فلولا عظمته لما جُرِّدت الأقلام، واحتشدت الحشود.

وعلينا ألا نلتفت لمن يتنكرون لفكرة التطور والتجديد؛ فإنهم " في هذا الموقف الأخير (وهو الرفض المطلق لكل جديد) يتنكرون لأهم وظائفهم كما يتنكرون لحقيقة ثابتة مستقرة، هي تغير اللغة من حال إلى حال، شئنا أم لم نشأ. وهذا التغير يحتاج منا إلى نظر ودراسة، ولا يجدي رفضه بحال من الأحوال. لهذا كان الأساس الثالث المشار إليه سابقًا جديرًا بالنظر والأخذ في الحسبان في قضيتنا هذه"[32] ألا وهي قضية تعليم اللغة، أما الأساس فهو الاطلاع على كل جديد، وعدم رفضه برمته.

وعلينا أن نعي جيدًا أن اللغة مؤسسة متحركة لارتباطها بنشاط الإنسان المتجدد، والذي يحكمها هو قانون الغاية النفعية، لا قانون التزمت والقسرية؛ فهذا الأخير يعزلها. ولن يتحول

الشعب أول ما يتحول إلا من لغته؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في وجوده؛ لذا عليه الاعتناء بلغته، والانفتاح على المستجدات الحضارية دون تمييع لشخصيتها أو تضييع لسماتها المميزة.

هوامش البحث:

[1] د.محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، دار غريب، القاهرة، ص95.

[2] د.أحمد زكي صالح، نظريات التعلم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971م، ص298.

[3] د.محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، دار غريب، القاهرة، ص124.

[4] د.محمد خضر عريف، وأنور نقشبندي، مقدمة في علم اللغة التطبيقي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 1412هـ، ص66.

[5] د.عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992م، ص94،95.

[6] د.كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار غريب، القاهرة، 1998م، ص218.

[7] د.محمد كامل حسين، مقال بعنوان(اللغة والعلوم)، مطبعة التحرير، مجلة مجمع اللغة العربية، 1960م، ج12، ص19.

[8] د.محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماهير، المطبعة النموذجية، ط1، 1956م، ص88.

[9] د. عبد العليم إبراهيم، الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، دار المعارف، مصر، 1962م، ط2، ص47.

[10] د.عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان الأردن، 1407هـ/1986م، ط1، ص104.

[11] د.عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان الأردن،1407/1986،ط1،ص122

[12] للإيضاح انظر: د.عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992م، ص27،28.

[13] د.أحمد زكي صالح، نظريات التعلم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971م، ص د.

[14] أ- Van Els,Theo,Bongaerts,ExtraGuus,VanOs Charles,Janssen,Anne-Mieke,Dieten- , Applied Linguistics and the learning and teaching of foreign languages, Edward Arnold Ltd, London,1984, P.156:146- 125:103.

[15] للإيضاح انظر: د.علي عبد العظيم سلام، خصائص اللغة العربية وطرق تدريسها، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، 1995م، ط2، ص145:158.

[16] انظـر: Van Els,Theo,Bongaerts,ExtraGuus,VanOs Charles, Janssen,Anne-Mieke,Dieten- , Applied Linguistics and the learning and teaching of foreign languages, Edward Arnold Ltd, London,1984, P.279:247.

[17] للإيضاح انظر: أ-د.صوفي زكي غبريال،الوسائل التعليمية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، 1994م، ص47:192.

[18] د.أحمد زكي صالح، نظريات التعلم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971م، ص92.

[19] المرجع السابق، ص93.

[20] المرجع السابق، ص103.

[21] د.فتيحة حداد، ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية(دراسة تحليلية ونقدية)، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، مخبرالممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص215.

[22] د.أحمد زكي صالح، نظريات التعلم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971م، ص298.

[23] د.فتيحة حداد، ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية(دراسة تحليلية ونقدية)، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، مخبرالممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص183، ولمزيد من الإيضاح انظر المرجع نفسه، ص184:192

[24] د.محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، دار غريب، القاهرة، ص131.

[25] المرجع السابق، ص132.

[26] الطالبة ياسة ظريفة، رسالة ماجستير(الوظائف التداولية في المسرح مسرحية "صاحب الجلالة" لتوفيق الحكيم-نموذجًا-)، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2010/2009م، ص17.

[27] د.محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، دار غريب، القاهرة، ص137.

[28] د.رضوان القضماني وأسامة العكش، نظرية التواصل المفهوم والمصطلح، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد(29)، العدد(1)،2007م، ص141.

[29] الطالبة أودينة سليم، رسالة ماجستير(فلسفة التداوليات الصورية وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس)، جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم فلسفة،الجزائر، 1430/1429هـ-2009/2008م، ص26.

[30] المرجع السابق، ص42.

[31] للإيضاح انظر: أ.مولز-ك-زيلتمان-ك.أوربكيوني-ترجمة وتعليق د.محمد نظيف، في التداولية المعاصرة والتواصل فصول مختارة، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 2014م، ص22:19.

[32] د.كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار غريب، القاهرة، 1998م، ص260.